مشهد

عباراتٌ عاجزة وكلام لا يفي بمضمونه

استعاراتٌ جديدة لركام غزّة

كيف يمكننا التعبير عن مشاهد التفتيت الكامل لأحياء بأسرها، شوارعها ومبانيها، مرافقها ومغانيها، وقد صارت اليوم يبابًا بلقعًا، ومن أين لكلام أن يقدر على توصيفَ عنف الانفجارات التي تُحيل عمارة كاملة إلى كُدس مفتّت، كأنّها من الكرتون أو الهواء؟

نجم الدين خلف الله

إنّ متابعة حرب الإبادة التي تجري في غزّة حاليًا تُظهر الحجم المتزايد للمفردات والعبارات المُحيلة إلى سجل الدمار والتحطيم والهدم والركام. فقد طاولت وحشية الضربات الإسرائيلية، إلى جانب الاثنين وأربعين ألف شهيد، ثمانين في المائة من البنية التحتية لقطاع غزّة وما فيها من مبانٍ تشمل المساكن الخاصة ومؤسّسات الدولة حتى سُوّيت جميعها، بل أحياء كاملة، بالأرض.

في الماضي القريب، لم تكن عبارات مثل «على أنقاض» أو «سُوّي بالأرض» أو «ركام» سوى استعارات تدلّ على المبالغة في التهديم أو على بصيص الأمل كما في عبارة «شُيّد الفكر الفلاني على أنقاض كذا»، لكنها هنا حقيقة لا مجاز فيها، وواقع اليم يعجز الكلام المباشر عن الإيفاء بمضمونه، إذ لا تقدر لغة الكلام على توصيف عنف الانفجارات التي قد تحيل عمارة كاملة إلى كُدس مفتّت، كأنّها كانت من الكرتون أو الهواء، رغم أنّها مبنية من الصخر والحديد. ينهار كل شيء بفعل القصف الإجرامي الذي يستعين بأرقى النظريات الفيزيائية في تصنيع الأسلحة الأشدّ تدميرًا وفتكًا. والأقسى أنّها تُجرّب على مبانٍ بسيطة، شيّدها الغزيون بعرق الجبين أو بمساعدة من بعض الدول العربية والإسلامية.

ومع أنّها تستعمل حقيقة لا مجازًا، تعجز هذه العبارات عن تصوير حجم الدمار؛ لأنّها بقيت في دائرة المألوف المتمثّل في التهديم المقدّر للمباني، مثل ما يجري في بعض المدن حين يتقرّر ترميم أحيائها القديمة أو تجديدها. أمّا ما نشاهده اليوم فهو نسف شامل للعمارات، وهو من الشدة والهمجية حتى إننا نحتاج، من أجل وصفه، إلى مفردات تنحدر من سجلّ أهوال الآخرة ونهاية العالم، لعلّها توفي ببعض هذا العنف الذي لا يتناهى. وإلا فكيف يمكننا التعبير عن مشاهد التفتيت الكامل لأحياء بأسرها، شوارعها ومبانيها، مرافقها ومغانيها، وقد صارت اليوم «يبابًا بلقعًا»، ولا مجاز ولا مبالغة.

ولذلك يجتهد الصحافيون في إبراز آثار القصف على أحياء غزّة وما يخلفه من أنقاض صارت هي الأخرى عدوًّا خفيًّا للفلسطينيّين، حيث يقضي البعض منهم اختناقًا بغبار تهاويها، ويموت الآخرون تحت وطأة سقوط الجدران وإسمنتها المسلّح وما يحتويه من حديد قاتل كالرصاص، لكن بلا رحمة.

وقد برعت هذه الأقلام في نقل الخراب المطلق الذي أصاب هذه الأحياء، فتحوّلت إلى أكوام من الحجارة تستحيل فيها الحياة بعد أن كانت عامرة بالاجتماعات العائلية، تؤوي، مثل أي بيت في العالم، أسرًا كاملة بأمالها والامها، بقصص حبّها وخيباتها، بتفاصيل حياتها البسيطة، كمتابعة التلفزيون أو الدردشة على الهاتف مع الأصدقاء، كما يجري ذلك في كل بيوت الدنيا. وإذا بها تصبح أشباحًا بفعل القصف المستمر لأكثر من سنة، مجرد أكوام حجر مترامية، يستحيل السير بين جنباتها فضلًا عن رفعها.

ومع أن هذه المشاهد التي تنقل يوميًا على القنوات الشريفة وتغنيها «قنوات التعامي» تذكّر بمشاهد الدمار التي لحقت بالمدن الألمانية والروسية والفرنسية إبّان الحربين العالميتين، لكن ذلك لا يُحرك مشاعر ساسة هذه الدول الذين عجزوا عن إيقاف دوامة الهمجيّة. ففي حين لا تزال تُعرض مشاهد دمار هائلَيْ الحربيْن كما لو كانت قد حصلت بالأمس القريب، تتجاهل هذه القنوات نفسها عن قصد مشاهد تهديم منازل الغزّيين ومرافقهم. هؤلاء الغُزّل الذين هُجّروا قسرًا بعد أن رأوا بيوتهم تنهار أمام أعينهم، هذا لمن حالفه الحظ. أمّا البقية فقد قضت تحت الأنقاض التي صارت قبرًا للمئات منهم بعد أن عجز أهاليهم عن إخراجهم من تحتها.

وكم هو مُوجِعٌ أن نرى مشهد أولئك الشبان الذين ينبشون الحجارة بأيديهم، كأنّها قبور مغمورة، للوصول إلى جسد لا يزال فيه رمق حياة وبقيّة نَفَس. وكم هو مؤلم أن يحاول والدٌ تحريك تلك الأحجار من دون الإضرار بجسد ابن ثاو تحتها، عسى أن يظفر به ولا تزال فيه حُشاشة بقاء. أيادٍ يائسة تصارع أطنانًا صخر صلب كانت تهيئ مع كل قصفٍ لتقاوم ما تكدّس من الأحجار والحديد. ولا ننسى أن تسوية المدن بالأرض ومشاهد الأنقاض صارت سلاحًا حقيقيًا وتهديدًا فعّالًا ترفعه اليوم «إسرائيل» في مواجهة لبنان وإيران، بما لهذا التدمير وصوره من آثار سلبية على وعي المقاومة. فهو لا يرمز إلى الخراب، بل هو الخراب والعدم واللاشيء.

وكم كان يحلو للمثقفين في الغرب ولمؤسّساته الرسمية أن يقيموا الدنيا ولا يقعدوها إذا مسّ عمل إرهابيّ ما معلمًا تاريخيًا، اقترفه فردٌ ينتمي إلى بني جلدتنا، مدّعين أنّه ملك للإنسانية جمعاء وأنّه محميّ بالقوانين الدولية. ولكن هذه الأطراف نفسها لا تحرك ساكنًا اليوم بعد أن هُدمت معالم غزّة، مساجدها وكنائسها ومستشفياتها وسُوّيت جميعها بالأرض بسبب الأسلحة الغربية الفتاكة، والتي لولاها لما تمكّن المحتلّ من إلحاق هذا القدر من الأضرار، و«إعادتها إلى العصر الحجري» كما يتبجّح القادة العسكريون بذلك. كم يحزن المتابع البعيد للشأن الفلسطيني أن ينعم بمشاهد العمران وقيام ناطحات السحاب شامخةً في حين يضيق المجال البصري للغزّيين، فلا يشمل سوى أكوام لا متناهية من الركام والأنقاض تمتدّ على عشرات الكيلومترات على قارعتي الطريق، وبينهما جحافل العزّل يروحون ويغدون كأنهم في تيه تحت أنظار العالم «المتحضّر» الذي يتباكى على تحطيم تمثال هنا وهناك ويملأ الدنيا صخبًا إذا سُرقت منه حجارة واحدة. إن أنقاض المساجد والكنائس المتراكمة في أحياء غزّة لهي أكبر تحدٍّ للحداثة وتفنيدٍ لمقولاتها، لأنّها تُجسّد تناقضات الفكر الغربي وسقوطه وعجزه عن إيقاف مسارات الهمجيّة التي بعد أن طاولت البشر وادّعى حقوقه في الحياة، وصلت الحجر وما يحمله من مبادئ التراث والذاكرة والمعالم التاريخية التي تشهد على الماضي وترتبط بالهوية والانتماء وحرية السكن وحقّ الأمان والحماية. فمع كل قصف، يتلاشى خطاب الحداثة وينتشر في الفضاء متفتّتًا متناثرًا.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

> يجسّد ركام غزّة تناقضات الفكر الغربي وعجزه عن وقف الإبادة
>
> صارت مشاهد الأنقاض سلاحًا حقيقيًا يستخدمه الاحتلال

شاب فلسطيني في احد الطوابق العلوية لمبنى مُدمر في خانيونس جنوب قطاع غزّة، 8 تموز/ يوليو 2024 (Getty)

انقاض تخلخل الحداثة

اكوام الانقاض المتراكمة في احياء غزّة هي تحدّ للحداثة الغربية وتفنيدٌ لمقولاتها، فهي تحيل الى اكوام حقوف الانسان بعد ان تخلخل بناؤها وانهارت مبادلها. وها نحن نراها ماثلة كاكوام ينبش فيها امثالنا عن بقايا امل في احترام الانسان غير الغربي، فلا نكاد نعثر على شيء. ولا نحري باي خطاب سيبرّر العرب او الغرب عملية اعادة بناء غزّة، التي ستظلّ اكوام حجارتها شاهدة على انهيار الحضارة وسقوطها المدوّي.

إضاءة

تعليم بوطأة التجارب الشخصية

التفكير داخل الصندوق

تتلازم تصريحات الشاعر البحريني مع نيله «جائزة الأركانة»، بحيث قد يُفهَم من كلامه ومن زمن الجائزة أن الشعر لا يكون إلا كما يريد قاسم حداد!

يزن الحاج

انتشر مقطع للشاعر البحريني قاسم حداد يحضّ فيه المهتمّين والهواة على إهمال تعلّم البحور الشعرية، إذ يرى – تيمّنًا بنصيحة أستاذٍ له – أنّ من يشغل نفسه بالبحور سينسى الشعر. ليست التصريحات العجيبة بغريبة عن الشعراء، ولذا كان التّقسيم الصحيّ المديد في تاريخ الشعر العربي بين شاعر وناقد، أو شاعر وراوٍ، حيثُ يمسك الناقد أو الراوية تلابيبَ الكلام عن الشعر، ويترك للشاعر تدبيج القصائد من دون تنظير لها أو فيها، أو للشعر أو فيه.

سيترافق هذا التصريح بأمرين، أولهما خبر قديم وصل إلينا بروايات عديدة، والثاني خبر حديث يرتبط بحداد نفسه. الخبر القديم هو القصة المشهورة حين سعى أبو نواس إلى خلف الأحمر كي يدلّه على طريق الشعر، فأمره بحفظ ألف مقطوع للعرب بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة، وبعد أن حفظها عاد إلى خلف فأمره بإنشادها ثم نسيانها، وبعد أن نسيها أذِن له خلف بنظم الشعر.

من البداهة القول إنّ أبا نواس لم ينس ما حفظه بطبيعة الحال، وإنّما المراد «إتقان» صناعة الشعر باختلاف أشكاله قبل البدء بالكتابة. أي إنّ خلفاً أراد من الشاعر إدراك الصندوق وما فيه، والتفكير داخله، قبل أن يُتاح له التفكير خارج الصندوق وخارج القواعد. وليس مصادفة أن أبا نواس ارتبط بالتجديد الشعري، وكأنّ المراد من هذا الخبر أنّ التجديد مرتبط ارتباطاً جوهرياً بمعرفة القواعد «التقليدية» قبل أن يكون ثمة تجديد. ما التجديد أصلاً إن لم يكن ثمة قديم يُجدَّد فيه ومنه؟

وفي واقع الحال، آخر من يُسعى إليه في صناعة الشعر هم الشعراء، إذ سيُثقلون على التعليم بوطأة تجاربهم الشخصية، وجعل ما هو شخصيّ قاعدة عمومية قد تصلح لغيرهم وقد لا تصلح. ولكنّ كلام حداد ليس بمستغرب في زمننا هذا، زمن موت كل شيء؛ إذ قتلنا الأيديولوجيا والناقد والمؤلّف، وحكمنا على الوزن في الشعر بالموت، لا لشيء إلا لأننا ظننّا أنّ الوزن والقافية حمولة أزمنة ماضية لا بدّ من التخفّف منها كي ندخل الحداثة وما بعدها وما بعد بعدها. ولكن، أليس المتنبّي أشدّ حداثة من حداثيينا؟ ألم تكن لبدوي الجبل حصة كبرى في الأعداد الأولى من مجلة «شعر» الحداثية؟ أئمة من يجرؤ على تجاهل الجواهري حتى في تسعيناته التي كانت تسعينيات القرن العشرين؟

حين طُلب من محمود درويش تعريف الشعر أجاب بأنه لا يعرف تعريفاً للشعر، غير أنه يعرف «ما ليس شعراً». مثال درويش هنا مقصود، إذ كان خير من طوّع الوزن والقافية في أزمنة الحروب التي شنّها «فرسان» قصيدة النثر على كلّ ما له رنّة «خارجية»، من دون أن يُقنعونا بتعريف لتلك الموسيقا الداخلية التي يربط بها كلّ من لا يكتب الوزن. ونتذكّر هنا سخرية الماغوط اللاذعة من زملائه الحداثيّين الذين إذا قلت لأحدهم: «المتنبي» ثلاث مرات يسقط مغميّاً عليه!

ليس كلامي هنا موازنة أو مفاضلة بين الموزون وغير الموزون. فالشعر في مكان آخر بالمطلق، والوزن والقافية والموسيقا (الخارجية أو الداخلية أو التي بين بين) محض أدوات، لا غاية في ذاتها. بل إنّ ما أقصده هنا التركيز الغريب من المثقفين والشعراء كلّما كبروا على نسف كلّ ما ومن قبلهم من تجارب، بصرف النظر عن حتّى لكثير من قصائد قاسم حداد. وهنا تتلازم التصريحات مع الجائزة المستحقة (جائزة الأركانة) التي نالها حداد، بحيث قد يُفهَم من كلامه ومن سياق زمن الجائزة أن الشعر لا يكون إلا كما يريد قاسم حداد، أو أنّ الحظوة لا تكون إلا حين نفكّر خارج الصندوق مع أنّنا لا نعرف ماهية ذلك الصندوق أساساً. تُنسَب إلى بيكاسو عبارة: «تعلّم القواعد مثل محترف، بحيث يتاح لك كسرها مثل فنّان». بصرف النظر عن صحة نسبة العبارة، نجد تمييزاً دقيقاً بين الاحتراف والفنّ، بحيث يكون الأول شرطاً لازماً وكافياً، ودربا جوهريا وأساسياً لا غنى عنه لكل فنّان. وما يحدث اليوم من تصريحات ونقاشات ومهاترات وشجارات ليس إلا تركيزاً على موضوع أوحد هو «الاحتراف». ففي ظلّ الأمّية الثقافية المرعبة التي نعيشها اليوم، وتوفّر منابر النشر والكلام لكلّ من امتلك ميكروفوناً أو حساب فيسبوك، بات «الاحتراف» سبّة ونقيضاً للفنّ، بدلاً من أن يكون في مكانه الفعليّ: شرطاً جوهرياً للفنّ بحيث لا يكون له معنى أو قيمة من دونه.

> ثمة تركيز غريب من بعض الشعراء على نسف تجارب من قبلهم

والاحتراف يستلزم معرفة القواعد، وتعلّمها، وتبيُّن ذلك الصندوق المكروه قبل نسفه والتفكير خارجه إلى حدّ أننا صرنا في فلاة جدباء كلّ ما فيها خارج من دون أن يكون ثمة داخل يُحتكم إليه أو يُقارَن به. وحين يصبح الاحتراف سبّة على السنة المحترفين، لا عجب أن يكون كلّ (أو جلّ) ما هو خارج ذلك الصندوق مثيراً للشفقة.

(كاتب ومترجم سوري)

عمل للفنان العراقي شاكر حسن آل سعيد. كولاج ومواد مختلطة على ورق

قصة

خارج المحرقة وهذا يعذبني أكثر مما لو كنت داخلها

أن تأكل لحم أخيك نِيْئاً

حسن أكرم

كان كابوساً، لكن ذلك لن يخفف من وقع المسألة، لو أنّها وقعت عليّ بشكلها التام والحقيقي لكان وقعها أهون من أن أكون مُشاهداً من بعيد. أنا خارج المحرقة، وهذا يعذبني أكثر مما لو كنت داخلها، وكنت بالفعل أنتظر حتفي.

ما حدث ربما يفسّره العلم أنه تراكم مشاهداتي ومخاوفي التي حولها عقلي اللاواعي إلى كابوس دام، في النهاية الكابوس لن يأخذ منك سوى راحتك وبلخبط ساعات نومك، ما الذي خسرته سوى أنني صحوت في الخامسة بدلاً من السادسة فجراً؟ وماذا يعني أن أكون مرعوباً، ولا يمكنني معاودة النوم؟

لكني اضطررتُ إلى سحب نفسي نحو النافذة، وطالما كان يبدو لي الفجر وقتاً للصلاة لا لغيرها، حيث يحدث أن يتطابق سكون الفجر مع سكون الروح، وهذا التطابق التام طالما أسميته صلاة، حتى لو أنني لم الهج بشيء يدلّ على ديني أو معتقدي، ولم أختر الإله الذي يدل عليّ، لكنها صلاة، بوصفها ارتباطاً حتمياً بالسماء، وليس لأكثر وأعمق من هذا التفسير.

لكن حتى تلك الصلاة البسيطة تعذّرت بفعل الكابوس الذي حزّ رقبتي بسكين أعمى، لقد شاهدت نفسي بين تلال الخراب في غزّة، وإن لم يشر أحد إلى أن ذلك المكان الذي كنت فيه هو غزّة بالفعل، لكني في قرارة نفسي أصفُ كلّ تلال الخراب المحاطة بعيون النار غزّة، لذا وبينما كنتُ أقود دراجتي بين تلالها، وأخي الذي بدأ كبيراً في الرحلة، وصغر حتى صار طفلاً، في تلك اللحظة التي رابته فيها يتجمّد، ويَزرق، فكرت في الوهلة الأولى أنّه نائم، لكنه في ما بعد يبدو لأي مشاهد أنه يختنق. وبردّة فعل مني، كانت سريعة للحد الذي لا يمكن أن تكون تلك السرعة منطبقة مع سرعتنا الحقيقية في الواقع، وبحدث ذلك في الأحلام والكوابيس حصراً، أنزلته من الدراجة الهوائية، ورحت أضرب على ظهره، ولم أجهد كثيراً في ذلك، حتى خرج من فم أخي، خمس قطع مكعبة من اللحم الأحمر، وكانت «rare» (نيّئة). لم تكن كاملة الاستواء لتبدو لحم بقر، ولم تبدُ أنها لحم بشري، كانت بهذا القدر من الاستواء الذي يجعلك تشكك في مصدره.

تناثرت القطع في الهواء، ولصقت إحداها في رقبتي، في الزاوية التي ترتفع عن نهاية عظم الترقوة نحو الكتف، وكان يديّ المشغولتين بشيء ما تعذر عليهما تحسّس مكان اللحم، فحاولت بعيني أن التقط الزاوية المبتة التي ترتكز فيها قطعة اللحم، غير أني لم أر شيئاً، لكني تحسست لزوجتها بذقني، وحينها شعرت أنني ملتاث باللزوجة في جسدي وداخل روحي.

وصحوت على ذلك الكابوس، وصرنا نعرف مكان حزّ الكابوس لرقبتي. في الزاوية التي ترتفع عن نهاية عظم الترقوة نحو الكتف. وصرنا نعرف لحم من هذا، ومن قطّعه إلى تلك القطع الصغيرة، وصرت أعرف أن صلاتي غير مقبولة ما دمت ملتاثاً بتلك اللزوجة، وصرت أعرف لأول مرة أنني لست إنساناً.

(كاتب من العراق)

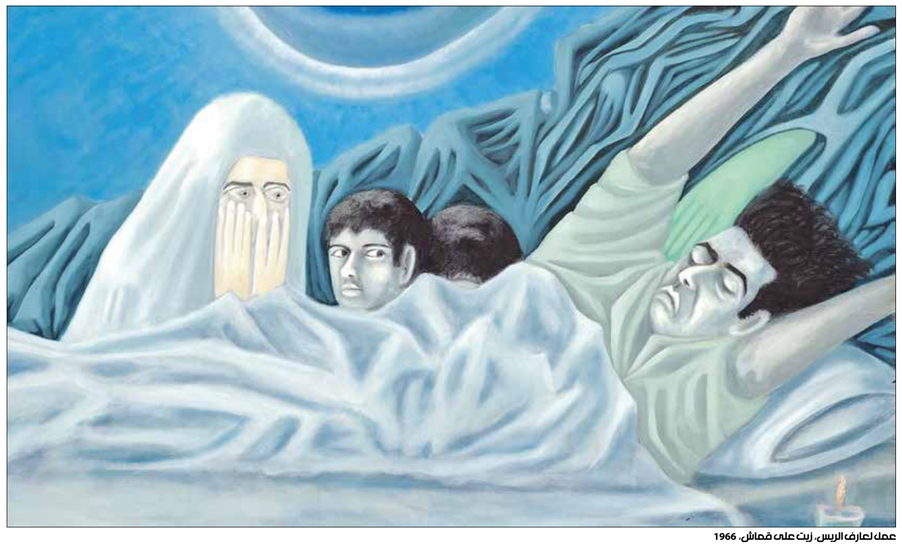

عمل لعارف الريس، زيت على قماش، 1966

فعاليات

يُفتتح عند الرابعة من عصر الاحد المقبل في «مركز خليل السكاكيني الثقافي» برام الله معرض **ملصقات من اجل غزّة**، والذي يتواصل حتى الرابع من كانون الاول/ديسمبر 2024، بتنظيم من «غاليري زاوية». يضمّ المعرض اعمال 26 فناناً، تعكس رؤيتهم للمجازر الصهيونية والابادة والتطهير العرقي في قطاع غزّة.

ينطلق السبت المُقبل في «متحف: المتحف العربي للفن الحديث» بالدوحة معرض **كل شيء احمر ورمادي: استقصاء معماري**، والذي يتواصل حتى الثاني والعشرين من شباط/فبراير 2025. يتضمن المعرض تحقيقات حول عمليات الاعدام المنهجية والدفن الجماعي للفلسطينيين التي نفّذها جنود الاحتلال عام 1948، خاصة في قريتي الطنطورة والدوايمة، وكذلك الإبادة المتواصلة في غزّة.

حتى منتصف الشهر المقبل، تتواصل على مسارح «دار الاوبرا المصرية» في القاهرة والاسكندرية سلسلة عروض من **باليه الف ليلة وليلة** التي انطلقت امس. العرض الذي تقدّمه «فرقة باليه» و«اوركسترا دار الاوبرا»، يعود إلى قصة السلطان شهريار الذي تعرّض لخيانة زوجته، حتى التقى شهرزاد، وراحت تسرد له القصص لتنجو من القتل.

تُختتم عند السابعة من مساء الاربعاء فعاليات الدورة العاشرة من **المهرجان الدولي للمعاهد المسرحية** في الرباط، والتي افتتحت يوم الجمعة الماضي. يتضمّن برنامج التظاهرة خمسة عشر عرضاً من بلجيكا وتشيلي وكولومبيا وفرنسا وغينيا وايطاليا وهولندا وبولندا والمكسيك والسنغال، بالإضافة الى المغرب.